النص الكامل



١٣

مغامرات شيرلوك هولمز

تأليف:
آرثر كونان دويل

ذو الغُرَّة الفِضّية





بالرسومات الأصلية





ذكريات
شيرلوك هولمز
(١)

ذو الغُرَّة الفِضّية

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



شركة الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من برbادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلَصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية وورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

ذو الغُرَّة الفِضّية

لمأساوي لسائسه، ولذلك كان إعلانه المفاجئ عن نيّته في الذهاب إلى مسرح الأحداث هو ما توقعته، بل وهو ما تمنّيته.

قلت: يسعدني جداً الذهاب معك... هذا إذا كنت لن أعيقك.

- بل إنك ستؤدّي لي خدمة عظيمة بذهابك معي يا عزيزي واطسون، كما أنني أعتقد أن وقتك لن يذهب سدى حيث إن بعض الأمور المتعلقة بهذه القضية تدل على كونها متميزة. لا أظن أن لدينا وقتاً لنضيّعه إذا أردنا اللحاق بقطارنا في محطة بادنغتون، وسأتعمق أكثر في هذه القضية خلال رحلتنا، كما أرجو أن تتفضل بإحضار منظارك المكبّر الرائع معك.

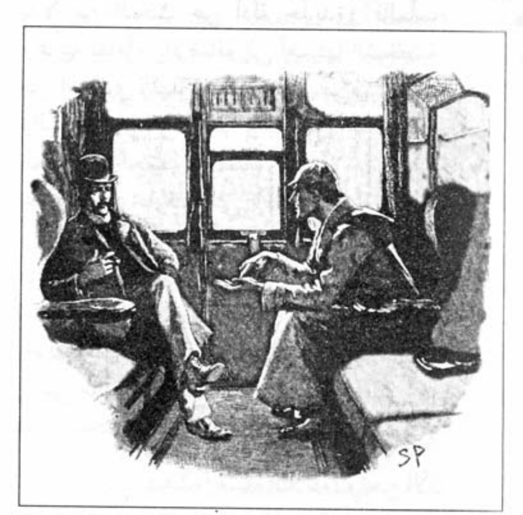
❊ ❊ ❊

وهكذا وجدت نفسي -بعد ساعة أو نحوها- جالساً في زاوية من زوايا عربة الدرجة الأولى في القطار المنطلق في طريقه إلى إكستر، أمّا شيرلوك هولمز بوجهه الحادّ المتلهف وقبعة سفره التي تغطي الأذنين فقد انغمس بسرعة في كومة من الصحف الجديدة التي حصل عليها من محطة بادنغتون، وكنا قد ابتعدنا عن ريدِنْغ بمسافة طويلة حين دفع بآخر صحيفة تحت مقعده.

نظر هولمز عبر النافذة ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته وقال: نحن نسير بسرعة جيّدة، فمعدلنا في الوقت الحاضر هو ثلاثة وخمسون ميلاً ونصف الميل في الساعة.

قلت: ولكنني لم ألاحظ علامة ربع الميل!

- ولا أنا، ولكن أعمدة البرق على هذا الخطّ يبعد أحدها عن الآخر ستين ميلاً، وهكذا فالحسبة



Sydney Paget 1892 رسم سدني باجيت ١٨٩٢

بسيطة. حسناً، أفترضُ أنك درست موضوع مقتل السائس جون ستراكر واختفاء الجواد «سلفر بليز» (ذي الغُرّة الفضية).

- لقد قرأت ما ورد من تفصيلات في صحيفتَي «التلغراف» و«الكرونيكل».

- إنها إحدى تلك القضايا التي يجب أن نستخدم فيها فنّ التحليل المنطقي لغربلة التفصيلات بدلاً من البحث عن أدلّة جديدة؛ فالمأساة كبيرة وغريبة تماماً، بالإضافة إلى أهميتها الشخصية للعديد من الناس، ولهذا فنحن نعاني من كثرة التخمينات والشائعات والفرضيات. وهنا تكون الصعوبة في فصل الحقيقة، الحقيقة المطلقة التي لا يمكن إنكارها، عن كل الزخارف التي أضافها أصحاب النظريات والمراسلون، وحين نستقرّ على أساس ثابت يكون من واجبنا أن نقرّر ما هي الاستدلالات التي يمكن استخلاصها والنقاط المهمة التي يدور اللغز كله حولها. لقد استلمت مساء الثلاثاء برقية من الكولونيل روس مالك الحصان وأخرى من المفتّش غريغوري الذي يبحث القضية، وكلاهما يطلب معاونتي.

صحت بدهشة: مساء الثلاثاء! ونحن الآن صباح الخميس. لماذا لم تذهب بالأمس؟

- كانت حماقة مني يا عزيزي واطسون، وأخشى أن هذا الأمر يحدث كثيراً خلافاً لما قد يظنه أي واحد ممن يعرفونني فقط من خلال مذكراتك، فالحقيقة أنني لم أستطع أن أصدّق إمكانية أن يظل الحصان الأكثر روعة في إنكلترا مختفياً لفترة طويلة، ولا سيما في مكان نادر السكان كشمال دارتمور! لقد توقعت أن أسمع بين ساعة وأخرى أنهم وجدوه بالأمس وأن مختطفه هو نفسه قاتل جون ستراكر، ولكن عندما جاء الصباح ووجدت أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى القبض على الشاب فتزْروي سِبْمسون شعرت بأن الوقت قد حان للعمل... وإن كنت -مع هذا- أحسّ أن يوم أمس لم يذهب هباءً.

- هل توصلت إلى نظرية إذن؟

- لقد فهمت الحقائق الأساسية في القضية على الأقل، وسوف أقوم بسردها عليك، فلا شيء يوضّح قضية ما أكثر من سردها على شخص آخر، كما أنني لن أستطيع توقع تعاونك إذا لم تكن تعرف من أين بدأنا.

استلقيت على المسند في حين قام هولمز -وقد مال إلى الأمام- بتوضيح النقاط الأساسية وإعطائي تصوّراً للأحداث التي كانت وراء هذه الرحلة. قال:

الجواد «سلفر بليز» (أي: ذو الغُرّة الفضية) من سلالة السومومي وله سجل رائع كسَلَفه الشهير، وهو الآن في عامه الخامس، وقد حصل بالتناوب على كل جوائز السباق لصاحبه المحظوظ الكولونيل روس، وكان حتى وقت وقوع الكارثة هو المرشَّح الأول لكأس ويسكس حيث كان الرهان لصالحه ثلاثة إلى واحد. على أية حال فقد كان دائماً هو المرشَّح الأول لجماهير السباق ولم يخيّب أملهم حتى الآن، وبالرغم من المبالغ الضخمة المراهَن بها عليه فمن الواضح أن الكثيرين من الناس لديهم دافع قويّ لمنع سلفر بليز من الوصول إلى نهاية السباق يوم الثلاثاء القادم، ولأنهم مدركون تماماً لهذه الحقيقة في كنغزبايلند، حيث تقع حظائر الكولونيل لأحصنة السباق، فقد اتُّخذت كل الاحتياطات لحراسة الجواد.

لقد كان السائس جون ستراكر فارسَ سباقات متقاعداً، وقد عمل في فريق الكولونيل روس قبل أن يصبح وزنه أكثر من المسموح، وكان قد خدم الكولونيل لخمس سنوات فارساً وسبع سنوات سائساً، ودائماً ما كان يظهر كخادم متحمس وأمين يعمل تحت إشرافه ثلاثة فتيان فقط، إذ كانت المنشأة صغيرة وتحتوي على أربعة أحصنة فقط، وكان أحد هؤلاء الفتيان يسهر طوال الليل في الحظيرة في حين ينام الآخران في العليّة، ويتمتع الثلاثة بشخصيات

ممتازة. أما جون ستراكر ولأنه رجل متزوج فيقيم في بيت صغير يبعد مئتَي متر عن الحظيرة، وليس لديه أطفال وعنده خادمة واحدة والمكان موحش جداً، ولكن على بعد نحو نصف ميل شمالاً يوجَد مجمع صغير من الدارات التي بناها مقاول من تافِسْتوك لتكون مكاناً يقصده المرضى والذين يريدون الاستمتاع بجوّ دارتمور النقي.

تافستوك نفسها تقع على بعد ميلين إلى الغرب، في حين تقع حظيرة خيل أخرى أكبر هي مابلتون على بعد ميلين عبر المستنقع، وهي حظيرة يملكها اللورد باكْوُوتر ويديرها سايْلاس براون، ومن جميع الجهات الأخرى يمتدّ مستنقع يحيط به قفر موحش يسكنه فقط بعض الغجر الرحّالة.

كانت تلك هي الحالة العامة يوم الإثنين الماضي حين وقعت الكارثة. في ذلك المساء تمّ تمرين الخيول وسُقِيت كالعادة، ثم أغلق الفتيان الحظائر في التاسعة حيث اتجه اثنان منهم إلى منزل السائس فتناولوا العشاء في المطبخ. أمّا الثالث، نيد هَنْتَر، فقد بقي في الحراسة، وبعد التاسعة بعدة دقائق ذهبت الخادمة إلى الحظيرة حاملة له العشاء، وهو طبق من لحم الضأن بالكاري، ولم تأخذ معها أي مشروبات حيث يوجَد صنبور للمياه في الحظيرة، وهو الشيء الوحيد

المسموح بشربه في أثناء الخدمة، وكان مع الخادمة مصباح حيث كان الظلام شديداً والطريق يمرّ عبر المستنقع الموحش.

كانت إيدث باكستر على بعد ثلاثين متراً من الحظائر حين خرج رجل من الظلام وناداها لتقف، وعندما اقترب من دائرة ضوء المصباح الأصفر رأت

رسم و هـ هايد ١٨٩٣ W H Hyde 1893

أن مظهره يدل على النبل حيث كان يرتدي بدلة رمادية اللون وقبّعة من القماش وقد انتعل في قدميه حذاء ذا ساق عالية، وكان يحمل عصا ثقيلة لها مقبض. وقد تأثرت الخادمة تأثراً شديداً من شحوب وجهه وتوتره ورجّحت أن يكون عمره فوق الثلاثين. سأل قائلاً: هل يمكنك إخباري أين أنا؟ لقد كنت على وشك النوم في المستنقع حين رأيت ضوء مصباحك.

قالت: أنت قريب من حظائر كنغزبايلند.

صاح قائلاً: حقاً؟ يا لها من ضربة حظ! أنا أعرف أن فتى الحظيرة ينام هناك وحده كل ليلة، وربما كان هذا الذي تحملينه عشاءه، وأنا متأكد أن كبرياءك لن يمنعك من كسب ثمن ثوب جديد، أليس كذلك؟

ومن ثم أخرج قطعة ورق بيضاء مطويّة من جيب صدريته ودفعها إليها قائلاً: تأكدي من أن يأخذ فتى الحظيرة هذه الورقة الليلة وستنالين أجمل ثوب يمكن للمال شراؤه.

أخافتها نبرة أسلوبه الجادّة فجَرَت متجاوزة إياه لتصل إلى النافذة التي اعتادت تسليم وجبات الطعام منها، والتي كانت مفتوحة بالفعل. كان هنتر يجلس إلى الطاولة الصغيرة في الداخل، وحين بدأت تخبره بما حدث ظهر الغريب مرة أخرى. نظر الرجل عبر

النافذة وقال: مساء الخير، لقد أردت التحدث إليك.

وقد أقسمت الفتاة أنها لاحظت طرف الورقة الصغيرة يظهر من يده المغلقة في أثناء كلامه.

سأله الفتى: ماذا تفعل هنا؟

قال الرجل: ما أفعله هنا قد يضع النقود في جيبك. عندك حصانان مشتركان في كأس ويسكس: «سلفر بليز» و«بيارد»، وإذا قمت بإعطائي معلومة واضحة فلن تكون خاسراً. هل صحيح أن بيارد قد سبق الآخر في الأوزان وأن جميع مَن في الحظيرة يراهنون بأموالهم عليه؟

صاح الفتى: لا بدّ أنك واحد من أولئك الذين يتجسّسون على الحظائر إذن؟ سأريك ما نفعله بأمثالك في كنغزبايلند.

هبّ الفتى واقفاً وانطلق عبر الحظيرة ليطلق الكلب، أما الفتاة فقد هربت إلى المنزل، وبينما كانت تجري نظرت خلفها لترى الغريب يميل عبر النافذة، ولكنه كان قد اختفى عندما أخرج هنتر الكلب بعد دقيقة واحدة، وبالرغم من أنه جرى حول المباني كلها إلا أنه فشل في العثور على أي أثر له.

عند تلك النقطة سألتُ هولمز قائلاً: دقيقة

واحدة؛ هل ترك صبي الحظيرة الباب مفتوحاً خلفه حين خرج يجري مع الكلب؟

قال رفيقي: ممتاز يا واطسون، لقد استوقفَتني أهمية هذه النقطة بشدّة حتى إنني أرسلت برقية خاصة إلى دارتمور أمس لأستوضح الأمر. لقد أغلق الفتى البابَ قبل أن يغادر، أما النافذة فهي ليست واسعة بما فيه الكفاية لمرور رجل. لقد انتظر هنتر عودة زملائه حتى يبعث برسالة إلى ستراكر يخبره فيها بما حدث، وقد انفعل ستراكر عند سماعه الموضوع. وبالرغم من أنه لم يدرك دلالته الحقيقية على ما يبدو إلا إنه شعر بعدم الراحة، فعندما استيقظت السيدة ستراكر في الساعة الواحدة صباحاً وجدته يرتدي ملابسه، وأخبرها حين سألَته أنه لم يستطع النوم بسبب قلقه على الخيول وأنه ينوى الذهاب إلى الحظيرة ليطمئنّ إلى أن كل شيء على ما يرام، وقد توسّلَت إليه ليبقى في المنزل لأنها كانت تسمع دقّات المطر على النافذة، ولكنه أخذ معطفه الواقي من المطر وخرج بالرغم من توسلاتها.

استيقظت السيدة ستراكر في السابعة صباحاً لتجد أن زوجها لم يَعُد بعد، فارتدت ملابسها على عجل ونادت الخادمة ليذهبا معاً إلى الحظائر، وهناك وجدتا الباب مفتوحاً، وفي الداخل كان هنتر مكوَّماً

على الكرسيّ غارقاً في غيبوبة كاملة، في حين كان مربط الحصان المرشَّح للفوز خالياً ولا أثر لسائسه!

استيقظ الصبيّان النائمان في مخزن التبن فوق الغرفة التي توجَد فيها عدّة الخيول، وبما أن كليهما كان نومه عميقاً فلم يسمعا شيئاً في أثناء الليل، وكان يبدو بوضوح أن هنتر واقع تحت تأثير مخدّر قوي، ولأنهم لم يستطيعوا فهم شيء منه فقد تركوه لينام حتى يزول تأثير المخدّر في حين جرى الصبيّان والمرأتان للبحث عن الغائبين، والأمل يراودهم في أن يكون السائس قد أخذ معه الحصان لتدريب مبكّر لسبب ما، ولكنهم لم يجدوا أي أثر للحصان المفقود عند صعودهم الهضبة القريبة من المنزل، بل لاحظوا وجود شيء ما أنذرهم بأنهم أمام مأساة.

فعلى بعد ربع ميل من الحظائر كان معطف جون ستراكر يتدلى فوق كومة من الشجر الشائك، وخلف الشجر تماماً كان يوجد منحدر شديد في المستنقع، وفي الأسفل عُثر على جثة السائس السيء الحظ وقد تحطم رأسه نتيجة ضربة قاسية من سلاح ثقيل، كما جُرح في فخذه جرح طويل نظيف أُصيبَ به -على ما يبدو- بواسطة آلة حادّة جداً. وكان من الواضح على أية حال أن ستراكر قد دافع عن نفسه بشدة ضدّ مهاجميه، حيث كان يحمل سكيناً صغيراً عليه دم

متخثّر حتى المقبض في حين قبض بيده اليمنى على ربطة عنق من الحرير الأحمر والأسود، وقد ميّزتها الخادمة على أنها تلك التي كان يرتديها الغريب الذي زار الحظائر في الليلة السابقة.

وبعد تعافيه من غيبوبته كان هنتر متأكداً تماماً من أن ذلك الغريب كان يملك ربطة العنق تلك، كما كان متأكداً أيضاً من أن الغريب هو الذي دسّ المخدّر



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

في طبق لحم الضأن حينما كان واقفاً عند النافذة، وبذلك حرم الحظائر من حارسها. أما الحصان فقد أثبتت الأدلّة أنه كان موجوداً في قاع الحفرة الطينية المشؤومة طوال مدة الصراع، ولكنه كان قد اختفى منذ ذلك الصباح، وبالرغم من رصد مكافأة كبيرة وإبلاغ كل الغجر في دارتمور لم ترد أي معلومات عنه. وقد أظهر التحليل أخيراً أن بقايا عشاء صبي الحظيرة تحتوي على كمية كبيرة من الأفيون المطحون، في حين اشترك الناس في المنزل في تلك الليلة في الطعام نفسه دون أي آثار سيّئة.

هذه هي الحقائق الأساسية في القضية مجرَّدةً من كل التخمينات ومَصوغة بكل صراحة ممكنة، وسوف ألخّص الآن ما فعله رجال الشرطة في الموضوع.

المفتش غريغوري الذي أُسندت إليه القضية ضابط كفء للغاية، ولو كان يمتلك موهبة الخيال لوصل إلى مستويات عالية في مهنته، فقد قام فور وصوله بالعثور على الرجل الذي وقعت عليه الشكوك وقام باعتقاله، وبما أنه كان يسكن إحدى الدارات التي ذكرتها من قبل فلم يكن القبض عليه صعباً. أمّا اسمه فهو فتزروي سمبسون، وهو رجل ذو نسب وتعليم ممتازَين، وقد بدّد ثروته في حلبة السباق ويعيش الآن على القيام بالقليل من المراهنات

الهادئة الراقية في نوادي لندن الرياضية. وبفحص سجل مراهناته ظهر أن مراهنات بمبلغ خمسة آلاف جنيه قد سُجِّلت بواسطته ضدّ الجواد المرشَّح، وعند القبض عليه تطوّع بالتصريح بأنه قد جاء إلى دارتمور أملاً في الحصول على بعض المعلومات عن خيول كنغزبايلند، وأيضاً عن ديسْبورو المرشَّح الثاني الذي هو تحت رعاية سايلاس براون في حظائر مابلتون. ولم يحاول إنكار تصرفاته في الليلة السابقة، ولكنه صرّح بأنه لم يكن لديه أي نوايا سيّئة وأنه أراد فقط الحصول على معلومات سرية. وحين تمّت مواجهته بربطة العنق شحب وجهه ولم يستطع تبرير وجودها في يد القتيل، وقد دلّت ملابسه على خروجه في العاصفة في الليلة السابقة، كما أن عصاه يمكن أن تكون السلاح الذي تسبّب في تلك الجروح الفظيعة التي تعرض لها السائس. ومن ناحية أخرى لم يكن سمبسون مصاباً بأية جروح، في حين تدل حالة سكين ستراكر على أن واحداً من مهاجميه على الأقل قد أصابه جرح بهذا السكين.

ها قد عرفت كل شيء يا واطسون، وسوف أكون ممتناً لك إذا استطعت إعطائي أي توضيح.

استمعت بانتباه شديد إلى عرض هولمز للقضية مع توضيحه المميَّز، وبالرغم من كون معظم الحقائق

مألوفاً لي إلا أنني لم أدرك أهميتها النسبية بما فيه الكفاية ولا ارتباطها بعضها ببعض.

اقترحت قائلاً: ألا يمكن أن يكون الجرح القاطع لدى ستراكر قد نشأ بواسطة سكّينه بسبب التشنّجات العنيفة التي عادة ما تتبع إصابات الدماغ؟

قال هولمز: هذا أكثر من ممكن، إنه مرجَّح، وفي هذه الحالة تختفي إحدى النقاط الرئيسية في مصلحة المتهَم.

- وبالرغم من ذلك ما زلت لا أفهم نظرية الشرطة.

ردّ رفيقي قائلاً: أخشى أننا سنجد اعتراضات ذات شأن على أيّ من النظريات التي يمكن أن نتوصل إليها. الشرطة يتصورون -على ما أظن- أن فتزروي سمبسون قد خدّر الصبي وحصل بطريقة ما على مفتاح مصطنَع ليفتح باب الحظيرة ويأخذ الحصان وفي نيّته اختطافه على ما يبدو، وبما أن لجامه مفقود فلا بد أنه وضعه عليه، وبعد أن ترك الباب مفتوحاً خلفه وبينما كان يقود الحصان بعيداً قاصداً المستنقع فلعله قد قابل ستراكر، وربما كان ستراكر قد هاجمه، ثم تلا ذلك بطبيعة الحال عراكٌ فضرب سمبسون ستراكر على رأسه بعصاه الثقيلة دون أن يصيبه أي جرح من

السكين الصغير الذي استخدمه ستراكر للدفاع عن نفسه، وبعد ذلك إمّا أن السارق قاد الحصان إلى مكان سرّي لإخفائه أو أن الحصان قد جفل في أثناء الصراع وهو الآن يهيم في المستنقع. هذه هي القضية كما يراها رجال الشرطة، وبالرغم من كونها غير محتمَلة فكل التفسيرات الأخرى غير محتمَلة أيضاً. على كل حال سأقوم بدراسة الأمر فور وصولي إلى المكان، وحتى ذلك الوقت لن نستطيع معرفة أكثر من ذلك.

* * *

حلّ المساء قبل وصولنا إلى مدينة تافستوك التي تقع في وسط الدائرة الضخمة التي تمثّل دارتمور مثل الحلية وسط ترس. كان في انتظارنا في المحطة رجلان أحدهما أشقر طويل ذو شعر كثيف على كل من رأسه ولحيته وله عينان ثاقبتان فضوليتان زرقاوان، والآخر شخص ضئيل يقظ متأنق مرتَّب جداً ويرتدي معطفاً ثميناً وحذاء ذا ساق عالية وله شارب قصير منمّق ويضع نظّارة طبية، وكان معهما الكولونيل روس الرياضي المعروف والمفتش غريغوري، وهو رجل بدأ يصنع لنفسه مكانة في مجتمع الشرطة السرّية الإنكليزية.

بعد دقيقة كنا كلنا جالسين في عربة مريحة تسير

بسرعة في شوارع مدينة ديفونشاير القديمة الجذّابة. كان المفتش غريغوري غارقاً في قضيته وأغدق علينا سيلاً من الملاحظات، أما هولمز فقد ألقى بعض الأسئلة العرَضيّة والملاحظات الاعتراضية. ورجع الكولونيل روس إلى الخلف وقد عقد ذراعيه وقبعته تغطي عينيه، أما أنا فقد استمعت باهتمام إلى الحوار الدائر حيث كان غريغوري يصوغ نظريته التي كانت تشمل تقريباً كل ما قاله هولمز في القطار سابقاً.

Sydney Paget 1892 — رسم سدني باجيت ١٨٩٢

أبدى غريغوري ملاحظة قائلاً: لقد ضاقت الشبكة حول فتزروي سمبسون، وأنا أعتقد أنه رجلنا المنشود، ولكن المشكلة أن الأدلّة كلها ظرفية وأي تطورات جديدة يمكن أن تفسدها.

- وماذا عن سكين ستراكر؟

- استنتجنا أنه قد جرَح نفسه حين سقط.

- لقد اقترح ذلك صديقي الدكتور واطسون ونحن في الطريق، وإذا كان هذا صحيحاً فهو ضدّ هذا الرجل سمبسون.

- بلا شكّ، فلم يكن لديه سكّين ولا عليه أي أثر لجرح. الدليل ضدّه قوي جداً بكل تأكيد، فقد كان مستفيداً من اختفاء الجواد المرشَّح ويحوم حوله الشكّ في تخدير فتى الحظيرة، كما أنه كان موجوداً في الخارج في أثناء العاصفة، وبلا شكّ فقد كان مسلَّحاً بعصا ثقيلة، وعُثِر على رباط عنقه في يد القتيل، وأظن أن كل ذلك كافٍ أمام المحلّفين.

هزّ هولمز رأسه وقال: أيّ محام حاذق سيجعل من هذه الأدلة هباء منثوراً؛ فلماذا يأخذ الحصان خارج الحظيرة؟ لو أراد جرحه فلماذا لم يفعل ذلك في الداخل؟ هل وُجد معه المفتاح المصطنَع؟ مَن

هو الكيميائي الذي باعه الأفيون المطحون؟ وفوق كل ذلك: أين يمكن له -وهو الغريب عن المنطقة- إخفاء حصان، ولا سيما حصان معروف مثل هذا؟ بالمناسبة، ما هو تفسيره للورقة التي طلب من الخادمة إعطاءها لصبي الحظيرة؟

- قال إنها ورقة من فئة عشرة جنيهات، وقد وجدنا واحدة في حقيبته. ولكن كل الصعوبات الأخرى التي ذكرتَها ليست بالأهمية التي تبدو عليها، فهو ليس غريباً عن المنطقة إذ أقام مرتين في تافستوك صيفاً، ومن المحتمَل أنه أحضر الأفيون معه من لندن، أما المفتاح فقد رماه بعد أن أدّى الغرض منه، والحصان يمكن أن يكون في قاع أي حفرة أو منجم قديم في المستنقع.

- وماذا يقول عن ربطة العنق؟

- يعترف بأنها له ويعلن أنه قد فقدها، ولكن عنصراً جديداً ظهر في القضية قد يفسّر سبب قيادته للحصان خارج الحظيرة.

انتبهت حواس هولمز في حين أكمل الرجل: لقد وجدنا آثاراً تُظهِر أن مجموعة من الغجر قد عسكروا ليلة الإثنين على بعد ميل من موقع حادثة القتل، وبحلول الثلاثاء كانوا قد رحلوا. والآن بافتراض أنه

كان بين سمبسون وهؤلاء الغجر اتفاق، أليس من الممكن أنه كان يسوق الحصان إليهم حينما هوجم؟ الا يمكن أن يكون عندهم الآن؟

- يمكن بالطبع.

- نحن نقوم الآن بتفتيش سريع للمستنقع بحثاً عن هؤلاء الغجر، وقد قمت أيضاً بفحص كل حظيرة في تافستوك وما حولها في دائرةٍ نصفُ قطرها عشرة أميال.

- لقد فهمت أن حظيرة أحصنة أخرى تقع قريباً من هنا.

- أجل، وهذا عنصر يجب علينا أن لا نُهمله بالتأكيد، حيث إن حصانهم «ديسبورو» هو المرشَّح الثاني في الرهان، ولذلك فإن لهم مصلحة في اختفاء المرشَّح الأول. وقد عُرف عن سائسهم سايلاس براون أنه يراهن بأموال ضخمة في هذه المسابقة، كما أنه لم يكن صديقاً للمسكين ستراكر، وإن كنا قد فتّشنا الحظائر ولم نجد شيئاً يربطه بالموضوع.

- ألم تجد شيئاً يربط هذا الرجل سمبسون بمصالح حظائر مابلتون؟

- لا شيء على الإطلاق.

استند هولمز إلى الخلف في العربة وتوقفت المحادثة. وبعد عدّة دقائق توقّف السائق عند دارة (فيلاّ) أنيقة صغيرة من الحجر الأحمر تقع بجانب الطريق، وعلى مسافة منها في الناحية الأخرى من المضمار رأينا مبنى رمادياً طويلاً، أمّا كل الاتجاهات الأخرى فكانت تُظهِر منحنيات المستنقع مكسوّة باللون البرونزي من نبات السرخس وتمتدّ أمامنا حتى تتصل بخطّ الأفق، لا تتخللها سوى كنيسة تافستوك ومجموعة من المنازل في الناحية الغربية حيث تقع حظائر مابلتون.

خرجنا جميعاً متوقعين أن يتبعنا هولمز الذي تابع اضطجاعه إلى الخلف وعيناه مثبّتتان على السماء أمامه وهو مستغرق تماماً في أفكاره، وعندما لمست كتفه انتفض من المفاجأة ثم خرج من العربة!

التفت هولمز ناحية الكولونيل روس الذي كان ينظر إليه ببعض الدهشة وقال: اعذروني؛ كنت أحلم أحلام اليقظة.

وكان في عينيه بريق وفي تصرفاته انفعال مكبوت، مما أقنعني -لأنني معتاد على أسلوبه- بأنه قد وضع يده على دليل، بالرغم من أنني لم أستطع أن أتخيّل من أين حصل عليه!

قال غريغوري: لعلك تفضّل الذهاب إلى مسرح الجريمة يا سيد هولمز؟

- بل أفضّل البقاء هنا قليلاً لأراجع سؤالاً أو أكثر عن التفصيلات. لقد أحضرتم ستراكر إلى هنا كما أفترض، أليس كذلك؟

- بلى، إنه يرقد في الطبقة العليا، وسيبدأ التحقيق غداً.

- لقد كان في خدمتك لسنوات عدة يا كولونيل روس، أليس كذلك؟

- لقد وجدته خادماً ممتازاً على الدوام.

- أحسبُ أنك قمت بجرد ما كان في جيوبه وقت الوفاة أيها المفتّش، أليس كذلك؟

- بل ومعي الأشياء التي وجدناها في غرفة الجلوس إذا رغبت في رؤيتها.

- سأكون سعيداً بذلك جداً.

دخلنا جميعاً إلى الغرفة الأمامية وجلسنا حول الطاولة الرئيسية، ثم فتح المفتش صندوقاً معدنياً مربّعاً صغير الحجم وأفرغ أمامنا كومة صغيرة. كان في الكومة علبة كبريت، وقليل من شمع الشحم،

وغليون خشبي، ومحفظة من جلد الفقمة فيها نصف مقدار من التبغ المضغوط، وساعة فضّية مع سلسلة ذهبية، وخمسة جنيهات إنكليزية ذهبية، وعلبة قلم رصاص من الألمونيوم، وبعض الورق، وسكّين ذو مقبض عاجيّ، ونصل حادّ دقيق عليه علامة «ويلز وشركاه، لندن».

رفع هولمز السكين وفحصه لعدة دقائق ثم قال: إنه سكين رائع! وأحسب أنه نفس السكين الذي وُجد في قبضة القتيل حيث إن عليه بقعاً من الدم. لا بدّ أن يكون هذا السكين في مجال تخصّصك يا واطسون؟

قلت: إنه يُستخدَم في جراحات العين.

- هذا ما ظننته. إنه نصل دقيق جداً مصمَّم لوظيفة دقيقة جداً، وإنه لأمر غريب أن يحمله رجل في مثل هذه الحالة، لا سيما وأنه لن يُطوى في جيبه.

قال المفتش: كان الطرف مَحمياً بقطعة مدوَّرة من الفلّين وجدناها بجوار الجثّة، وقد أخبرتنا زوجته أن السكين كان على طاولة الزينة وأنه التقطه عندما غادر الغرفة. إنه سلاح ضعيف، ولكن ربما كان أفضل ما استطاع الوصول إليه في تلك اللحظة.

- ممكن جداً. وماذا عن هذه الأوراق؟

- ثلاث منها إيصالات استلام خاصة بحساب تجار التبن، وواحدة فيها تعليمات من الكولونيل روس، وهذه الورقة الأخيرة هي كشف حساب باسم ويليم ديربشاير صادر من محل مدام ليسوريه للقبّعات في شارع بوند، وهو بمبلغ سبعة وثلاثين جنيهاً وخمسة عشر شلناً. وقد قالت السيدة ستراكر إن السيد ويليم ديربشاير صديق لزوجها وإنه يستلم خطاباته عن طريق زوجها في بعض الأحيان.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

قال هولمز وهو ينظر إلى الحساب: إن للسيدة ديربشاير ذوقاً مكلّفاً جداً، فهذا المبلغ كبير بالنسبة إلى ثوب واحد! على كل حال يبدو أنه لم يَعُد أمامنا شيء لنعرفه وبوسعنا الآن الذهاب إلى مكان الحادث.

وبينما كنا نخرج من غرفة الجلوس إذا بامرأة كانت تنتظر في الممرّ تخطو خطوة إلى الأمام وتضع يدها على ذراع المفتش! كان وجهها منهَكاً نحيلاً قلقاً، وكان مطبوعاً عليه الرعب مما حدث.

شهقت قائلة: هل حصلتم عليه؟ هل وجدتموه؟

قال المفتش: لا يا سيدة ستراكر، ولكن السيد هولمز جاء من لندن لمساعدتنا، وسوف نعمل كل ما يمكن عمله.

قال هولمز: أعتقد أنني قد قابلتك في بلايموث في حفلة من الحفلات منذ وقت غير طويل يا سيدة ستراكر.

- لا يا سيدي، أنت مخطئ.

- يا إلهي، كدت أقسم على ذلك! لقد كنت ترتدين ثوباً من الحرير الأبيض مزيَّناً بريش النعام.

أجابت السيدة: لم يكن عندي قَطّ مثل هذا الثوب يا سيدي.

قال هولمز: حسناً، هذا ينهي الموضوع تماماً.

بعد ذلك قدّم اعتذاره وتبع المفتش إلى الخارج، وبعد أن مشينا مسافة قصيرة في المستنقع وصلنا إلى المنحدر، وعلى حافّته كانت أكمة الشجر التي علق بها المعطف.

قال هولمز: لم يكن في تلك الليلة رياح كما فهمت.

- نعم، ولكن كان فيها مطر شديد.

- في هذه الحالة فالمعطف لم يكن ليطير ليحطّ على الأكمة، وإنما هو قد وُضِع هناك.

- أجل، لقد وُضع على الأكمة.

- هذا مثير للاهتمام. أرى الكثير من آثار الأقدام، ولا شك أن العديد من الأقدام جاءت إلى هنا منذ ليلة الإثنين.

- لقد وضعنا قطعة من الحصير على الجانب ووقفنا جميعاً عليها.

- ممتاز.

- عندي في هذه الحقيبة فردة الحذاء الذي كان يرتديه ستراكر وأخرى كان يرتديها فيتزروي وقالب

لحدوة سلفر بليز.

- عزيزي المفتش، أنت تتفوق على نفسك!

أخذ هولمز الحقيبة ونزل إلى المنحدر حيث دفع بالحصيرة إلى مكان أكثر مركزية، وبعد ذلك تمدّد على وجهه مستنداً بذقنه على يديه وقام بدراسة متأنية لمكان آثار الأقدام أمامه في الطين، ثم صاح فجأة: ما هذا؟!

كان هناك عود كبريت من الشمع نصفه محترق، وكان مغلّفاً بالطين لدرجة أنه بدا في البداية كقطعة من الخشب.

قال المفتّش وتعبيراته تدلّ على الضيق: لا أعرف كيف لم أجده!

- لقد كان مخفيّاً مدفوناً في الطين، وقد رأيته فقط لأنني كنت أبحث عنه.

- ماذا؟! أكنت تتوقع أن تجده؟

- تصورت أن ذلك غير مستبعَد.

أخذ هولمز الأحذية من الحقيبة وقارن أثر كل منها بالآثار الموجودة على الأرض، ثم تسلّق إلى حافّة المنحدر وزحف مفتّشاً بين السرخس والأجمة،

فقال المفتش: أخشى أنه لا توجَد أيّ آثار أخرى؛ لقد تفحّصت الأرض بعناية لمسافة مئة متر في كل اتجاه.

قال هولمز وهو يقف: حقاً؟ يجب إذن أن لا أتصرف بوقاحة وأبحث ثانية بعد الذي قلتَه، ولكنني أفضّل أن أتمشى قليلاً في أنحاء المستنقع قبل أن يهبط الظلام حتى أعرف طريقي غداً، وأظن أنني سأحتفظ بحدوة الحصان لتجلب لي الحظ.

ألقى الكولونيل روس الذي كان يُظهِر بعض الضيق من أسلوب رفيقي الهادئ المنظَّم في العمل، ألقى نظرة سريعة على ساعته وقال: أرجو أن تأتي معي أيها المفتش، فلديّ عدة نقاط أرغب في أن آخذ نصيحتك بشأنها، ولا سيما فيما إذا كنا ندين للجماهير بحذف اسم حصاننا من قائمة دخول السباق.

صاح هولمز بحزم قائلاً: بالطبع لا، أنا أرى أن تترك الاسم في القائمة.

انحنى الكولونيل باحترام وقال: يسعدني جداً معرفة رأيك يا سيدي، وسوف تجدنا في منزل المسكين ستراكر عندما تنهي جولتك، وعندها يمكن أن نذهب معاً إلى تافستوك.

قال هذا واستدار راحلاً ومعه المفتش، فيما سرت أنا وهولمز باتجاه المستنقع.

كانت الشمس قد بدأت بالغروب خلف حظائر مابلتون والسهل الطويل المنحدر أمامنا يتلون بلون ذهبي يتحول إلى لون بنّي ضارب إلى الحمرة عندما ينعكس ضوء الأصيل على نباتات السرخس والعلّيق، ولكن سحر المكان كان بلا فائدة مع صاحبي الذي غرق في أفكاره.

قال في النهاية: إنه هذا الطريق يا واطسون، ربما علينا أن نترك التساؤلات حول من قتل ستراكر الآن ونحصر أنفسنا في اكتشاف ما حدث للحصان. والآن إذا افترضنا أنه قد أفلت قبل المأساة أو بعدها فأين يمكن أن يذهب؟ الحصان مخلوق اجتماعي، فإذا تُرك لغريزته فهو إما أن يعود إلى كنغزبايلند أو يذهب إلى مابلتون، فلماذا ينطلق إلى المستنقع؟ كان من المؤكّد أن يراه شخص ما بعد كل هذا الوقت. ثم لماذا يخطفه الغجر؟ هؤلاء الناس يبتعدون دائماً حين يسمعون بوقوع مشكلات لأنهم لا يريدون أي إزعاج من الشرطة، ولا يمكن أن يكون عندهم أمل ببيع مثل هذا الحصان، فمن الواضح أنهم بأخذهم الحصان سيخاطرون مخاطرة كبيرة بلا فائدة.

- أين هو إذن؟

- لقد قلت من قبل إنه ربما ذهب إلى كنغزبايلند أو إلى مابلتون، وبما أنه ليس في كنغزبايلند فهو في

مابلتون إذن. لنأخذ هذا الكلام كفرضية ممكنة ولنفكر إلى أين ستقودنا. حسناً، هذا الجزء من المستنقع صلب للغاية وجافّ كما أشار المفتش، ولكنه ينحدر باتجاه مابلتون، ويمكن أن ترى من هنا أن هناك وادياً بعيداً لا بدّ وأنه كان طينياً جداً يوم الإثنين الماضي، فإذا كان افتراضنا صحيحاً فلا بدّ أن يكون الحصان قد عبر ذلك الوادي هناك في تلك النقطة التي يجب أن نبحث فيها عن آثاره.

كنا نسير ببطء خلال هذه المحادثة، وبعد عدّة دقائق وصلنا إلى الوادي الذي أشار إليه، وبناء على طلب هولمز فقد مشيت على الجانب الأيمن ومشى هو على الجانب الأيسر، ولم أكن قد تجاوزت خمسين خطوة حين سمعته يصرخ ويلوّح لي بيديه. كانت آثار الحصان محدَّدة بوضوح على الأرض الطرية أمامه، والحدوة التي في جيبه طابقت الأثر تماماً!

قال هولمز: أرأيت قيمة الخيال؟ إنها الصفة الوحيدة التي يفتقدها غريغوري، فقد تخيّلنا ما يمكن أن يكون قد حدث، وبالتحقق من هذا الافتراض وجدنا أننا على حقّ. والآن لنتابع.

وبالفعل عبرنا المستنقع ومشينا فوق ربع ميل من التربة الجافّة الصلبة، ثم انحدرت الأرض ثانية،

وعندها وجدنا الآثار ثم فقدناها لنصف ميل لنكتشفها مرة أخرى بالقرب من مابلتون، وكان هولمز هو أول من رآها فوقف يشير وعلى وجهه نظرة انتصار، إذ كانت هناك آثار أقدام لإنسان بجانب آثار الحصان.

صحت قائلاً: لقد كان الحصان وحده من قبل!

- هذا صحيح تماماً، كان وحده قبل ذلك... يا للعجب! ما هذا؟

دارت الآثار المزدوجة دورة حادّة واتخذت اتجاه كنغزبايلند، فصفر هولمز، وتتبعنا الأثر وعينا هولمز عليه، وتصادف أنني كنت أنظر قليلاً إلى أحد الجوانب فرأيت ما أدهشني، فالآثار نفسها تعود في الاتجاه المعاكس.

قال هولمز عندما وضّحت ذلك: لقد كسبت واحدة يا واطسون، فقد وفّرت علينا مسافة كبيرة كنا سنمشيها ونعود ثانية إلى المكان نفسه. دعنا نتبع الأثر العائد.

لم يكن علينا الذهاب بعيداً، إذ انتهى الأثر عند بداية طريق ممهّد يؤدّي إلى بوابات حظائر مابلتون، وعند اقترابنا خرج سائس من البوّابة وقال: لا نريد أي متطفلين هنا.

قال هولمز واضعاً إصبعه وسبابته في جيب صدريته: أريد فقط أن أسأل سؤالاً. هل أكون مبكّراً جداً إذا أتيت لرؤية سيدك، السيد سايلاس براون، في الخامسة من صباح الغد؟

- بوركت يا سيدي، إذا كان أحدٌ يستيقظ في هذه الساعة فسيكون هو. إنه أول المستيقظين دائماً. لحظة، ها هو ليجيب على سؤالك بنفسه.

وحين رأى هولمز يهمّ بإعطائه نقوداً قال: لا يا سيدي، لا؛ إذا رآني ألمس نقودك فسيكلّفني هذا عملي. فيما بعد إذا أردت.

وبينما كان هولمز يعيد المال إلى جيبه خرج رجل عنيف كبير في السنّ وفي يده عصا وصاح قائلاً: ما هذا يا داوسن؟ دع القيل والقال واذهب لعملك.

ثم التفت إلى هولمز وقال: وأنت؟ ماذا تريد؟

قال هولمز بأعذب الأصوات: عشر دقائق لأتكلم معك يا سيدي العزيز.

- ليس لديّ الوقت لأتكلم مع كلِ مَن هَبّ ودَبّ. لا نريد غرباء هنا، اذهب وإلا أطلقت الكلب في أثرك.

مال هولمز إلى الأمام وهمس بشيء في أذن

الرجل، فاهتزّ بعنف واحتقن وجهه حتى جبهته وصاح قائلاً: إنها كذبة... كذبة شيطانية!

- فليكن، هل سنتجادل حولها هنا في العلن أم في صالة استقبالك؟

- حسناً، ادخل إذا أردت.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

ابتسم هولمز وقال: لن أتركك أكثر من بضع دقائق يا واطسون. والآن يا سيد براون أنا تحت تصرّفك.

مرت عشرون دقيقة وبدأ الظلام يلفّ المكان قبل أن يظهر هولمز والسيد سايلاس براون ثانية. لم يحدث قط أن رأيت تغيّراً كالذي حدث للسيد براون في ذلك الوقت القصير؛ كان وجهه شاحباً جدّاً وحبّات العرق تلمع على حاجبَيه، وكانت يده تهتزّ لدرجة أن سوط الصيد طار من يده كغصن في مهبّ الريح، كما أن أسلوبه المتغطرس والمتهجّم قد اختفى أيضاً، فقد مشى منحنياً بجوار رفيقي ككلب يمشي مع سيده!

قال: سوف تُنفَّذ تعليماتك، ستُنفَّذ كلها.

التفت هولمز إليه وقال: يجب أن لا يقع أي خطأ.

جفل الرجل حين قرأ التهديد في عينيه وقال: نعم، لن يقع أي خطأ، سأكون هناك. هل أغيّره أوّلاً؟

فكّر هولمز قليلاً ثم انفجر ضاحكاً وقال: لا، لا تفعل، سأكتب لك عنه، لا مجال للخداع الآن وإلا...

- يمكنك أن تثق بي، يمكنك أن تثق بي.

- أجل، أظن أنني سأفعل. حسناً، ستصلك

أخبار مني غداً.

استدار على عقبَيه متجاهلاً اليد المرتعشة التي مدّها الرجل الآخر إليه وانطلقنا إلى كنغزبايلند.

* * *

قال هولمز فيما كنا نسير متثاقلَين: لم أقابل تركيبة كاملة من الشراسة والجبن واللؤم كالسيد سايلاس براون إلا نادراً!

- الحصان بحوزته إذن؟

- حاول أن يتملّص من الموضوع بالتهديد، ولكني وصفت له أفعاله ذلك الصباح بدقة حتى اقتنع بأنني كنت أراقبه. لقد لاحظت بالطبع الشكل الغريب لمقدّمة الحذاء في الأثر وأن حذاءه قد تطابق معه بالضبط. وقد وصفت كيف أنه وطبقاً لعادته كان الأول في النزول حينما لاحظ حصاناً غريباً يتجول في المستنقع بلا هدف، وكيف أنه ذهب إليه ودُهش حين أدرك من الغُرّة البيضاء في جبينه (والتي كانت سبباً لاسمه) أن المصادفة قد وضعت في قبضته الحصان الوحيد الذي يمكنه هزيمة الحصان الذي راهن عليه، وعند ذلك وصفت له كيف أن ردّة فعله الأولى كانت أن يعيده إلى كنغزبايلند، وكيف أن الشيطان أظهر له أن بإمكانه أن يخفي الحصان حتى ينتهي السباق،

ومن ثَمّ عاد به ليخفيه في مابلتون، وحين أخبرته بكل التفصيلات استسلم وفكر فقط في إنقاذ نفسه.

- ولكن حظائره فُتِّشت!

- حسناً، إن سائساً متمرساً مثله لن يُعدَم الحيلة.

- ولكن ألا تخشى أن تترك الحصانَ في قبضته الآن حيث إن لديه دافعاً كبيراً لإيذائه؟

- يا صديقي العزيز، سوف يحرسه كبؤبؤ عينيه؛ فهو يعرف أن أمله الوحيد في الرحمة يكمن في إعادته سليماً.

- لم يَبدُ لي أن الكولونيل روس من الأشخاص الذين من المحتمَل أن يُظهِروا الرحمة في أي حال من الأحوال.

- لا يتوقف هذا الأمر على الكولونيل روس حين اتبع طرقي الخاصّة، فأنا مَن يختار أن يخبره كثيراً أو قليلاً، وهذا من مميّزات كوني غير مكلَّف رسمياً. لا أعرف إن كنتَ قد لاحظت يا واطسون أن تصرفات الكولونيل نحوي يشوبها القليل من العجرفة، لذلك فمن حقّي الآن أن أحصل على بعض التسلية على حسابه. لا تقُل له شيئاً عن الحصان.

- بالتأكيد لن أفعل دون إذنك.

- وبالطبع هذا كله لا يكاد يكون شيئاً مقارَنة بمعرفة قاتل جون ستراكر.

- وستكرّس نفسك لهذا الأمر؟

- بالعكس، سنعود إلى لندن بقطار الليل.

صُعقت بكلمات صديقي، إذ لم يَمضِ على وجودنا في ديفونشاير إلاّ ساعات قلائل، وكونه سيتخلى عن تحقيق بدأه ببراعة كان أمراً غيرَ مفهوم لي!

لم أستطع انتزاع أي كلمة أخرى منه حتى عدنا إلى منزل السائس، وكان الكولونيل والمفتش في انتظارنا في صالة الاستقبال فقال هولمز: سأرجع أنا وصديقي إلى المدينة في قطار الليل السريع؛ لقد تمتّعنا بهواء دارتمور الجميل.

فتح المفتش عينيه دهشة في حين لوى الكولونيل شفتيه بسخرية وقال: إذن فقد يئست من القبض على قاتل المسكين ستراكر.

هزّ هولمز كتفيه وقال: توجَد بعض الصعوبات في الطريق بالتأكيد، ولكن الأمل يحدوني على أية حال بأن حصانك سيبدأ السباق يوم الثلاثاء، وأرجو أن يكون فارسك جاهزاً. هل يمكن أن أطلب صورة

للسيد جون ستراكر؟

أخذ المفتش صورة من ظرف وسلّمها له فقال هولمز: أنت تتوقع كل طلباتي يا عزيزي غريغوري! أرجو أن تنتظروني هنا لحظة؛ عندي سؤال للخادمة.

قال الكولونيل بفظاظة بعدما غادر صديقي الغرفة: يجب أن أقول إنني أشعر بقليل من خيبة الأمل في مستشارنا اللندني؛ لا أجد أننا قد وصلنا إلى شيء أكثر مما كنا عليه عندما وصل.

قلت: على الأقلّ لقد حصلت على تأكيده بأن حصانك سيسابق.

قال الكولونيل وهو يهزّ كتفيه: أجل، حصلت على تأكيده، وإن كنت أفضّل الحصول على الحصان.

كنت على وشك الردّ دفاعاً عن صديقي حين دخل الحجرة ثانية وقال: الآن يا سادة أنا جاهز تماماً للذهاب إلى تافستوك.

عندما دخلنا إلى العربة كان واحد من صِبْية الحظيرة يفتح الباب لنا، ويبدو أن فكرة مفاجئة خطرت لهولمز لأنه مال إلى الأمام ولمس كُمّ الفتى ثم قال: عندكم قليل من الخِراف في المضمار، من الذي يعتني بها؟

- أنا أفعل يا سيدي.

- هل لاحظت عليها شيئاً غريباً مؤخَّراً؟

- حسناً يا سيدي، إنه أمر غير ذي أهمية كبيرة؛ لقد أُصيبَ ثلاثة منها بالعرَج يا سيدي.

لاحظت أن هولمز مسرور جداً، فقد قهقه وفرك يديه ثم قال وهو يضغط على يدي: إنه تخمين موفَّق يا واطسون، تخمين موفَّق جداً.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

ثم التفت إلى المفتش وقال: غريغوري، هل لي أن ألفت انتباهك إلى هذا الوباء الغريب بين الخراف؟ انطلق أيها الحوذي.

كان الكولونيل لا يزال يحمل ذلك التعبير الذي يدل على رأيه السيئ في مقدرة رفيقي، ولكنني رأيت الاهتمام الشديد على وجه المفتش الذي سأل: هل تعتبر ذلك مهمّاً؟

- إلى أبعد الحدود.

- هل توجَد أي نقطة تودّ أن تلفت انتباهي لها؟

- حادثة الكلب المثيرة للفضول ليلة الحادث.

- الكلب لم يفعل شيئاً ليلة الحادث.

علّق شيرلوك هولمز قائلاً: وهذا هو الشيء المثير للفضول.

* * *

بعد أربعة أيام كنت أنا وهولمز في القطار مرة ثانية متجهَين إلى وينشستر لنرى سباق كأس ويسكس، وقد قابلنا الكولونيل روس حسب الميعاد خارج المحطّة حيث ذهبنا في عربة تجرّها الأحصنة إلى المضمار خلف المدينة. كان وجهه كئيباً وتصرفاته باردة إلى أقصى حدّ حين قال: لم أرَ حصاني بعد.

سأل هولمز: أظنّ أنك سوف تعرفه عند رؤيته؟

غضب الكولونيل جداً وقال: لقد شاركت في السباق لمدّة عشرين عاماً ولم يسألني أحد مثل هذا السؤال من قبل، فالطفل الصغير قد يعرف سلفر بليز بجبهته البيضاء وقائمتيه الأماميتين المبرقشتين.

- كيف هي المراهنة؟

- حسناً، هذا هو الجزء المثير للفضول في الموضوع. كنت تستطيع الحصول على خمسة عشر صوتاً مقابل صوت واحد بالأمس، ولكن النسبة استمرّت في التقلص حتى أصبحت الآن بالكاد ثلاثة إلى واحد.

قال هولمز: آه، من الواضح أن شخصاً ما يعرف شيئاً.

عندما توقفت العربة في الحظيرة المسيَّجة القريبة من المدرّج الكبير نظرت إلى اللوحة لأرى الجياد المشاركة، وقال الكولونيل: لقد شطبنا اسم حصاننا الآخر ووضعنا أملنا كله على وعدك. يا للدهشة! ما هذا؟! سلفر بليز هو المرشَّح؟

دوّى الصوت في حلبة السباق يقول: خمسة إلى أربعة ضدّ سلفر بليز، خمسة إلى خمسة عشر ضدّ

ديسبورو، خمسة إلى أربعة على المضمار.

صحت قائلاً: إن كل الستة هناك.

صاح الكولونيل روس بانفعال كبير: كل الستة هناك؟ حصاني سيشارك إذن! ولكنني لا أراه وأعلامي لم تمرّ!

- لقد مرّ خمسة فقط، لا بدّ أن يكون هو هذا.

وفيما أنا أتكلم انطلق حصان قويّ كستنائيّ اللون من حظيرة الوزن وأخذ يخبّ أمامنا وهو يحمل على ظهره أعلام الكولونيل المعروفة بالأحمر والأسود، فصاح صاحبه قائلاً: هذا ليس حصاني، هذا الوحش لا يحمل أي شعرة بيضاء في جسده! ما الذي فعلته يا سيد هولمز؟

قال صديقي برباطة جأش: حسناً، حسناً، لنرَ كيف سيتقدم.

وأخذ ينظر عبر منظاري المكبّر لعدة دقائق ثم قال: عظيم؛ بداية ممتازة.

ثم صاح قائلاً: ها هم يجتازون المنحنى.

كنا نحظى برؤية ممتازة من العربة حيث كانوا قادمين في خطّ مستقيم. كانت الخيول الستة قريبة جداً

بعضها من بعض، وفي منتصف الطريق ظهر الحصان التابع لحظائر مابلتون في المقدّمة، ولكن قبل أن تصل إلينا على أية حال قلّ جهد ديسبورو في حين تقدّم حصان الكولونيل فجأة وعبر نقطة النهاية متقدماً على منافسه بست مسافات، في حين حلّ إيريس حصان الدوق بالمورال في المركز الثالث بشكل سيّئ.

تنهّد الكولونيل وهو يمرّر يده على عينيه ويقول: لقد فزت بالسباق على أية حال. أعترف بأنني لا أفهم شيئاً من هذا... ألا تعتقد أنك احتفظت بهذا الغموض بما فيه الكفاية يا سيد هولمز؟

- بالتأكيد يا كولونيل ستفهم كل شيء. دعنا نذهب ونلقِ معاً نظرة على الحصان.

أكمل قائلاً فيما كنا نتجه إلى حظيرة الوزن التي لا يُسمَح بدخولها إلاّ لأصحاب الخيول وأصدقائهم فقط: ها هو، عليك فقط أن تغسل وجهه وقوائمه ببعض الكحول وسيعود سلفر بليز كما كان.

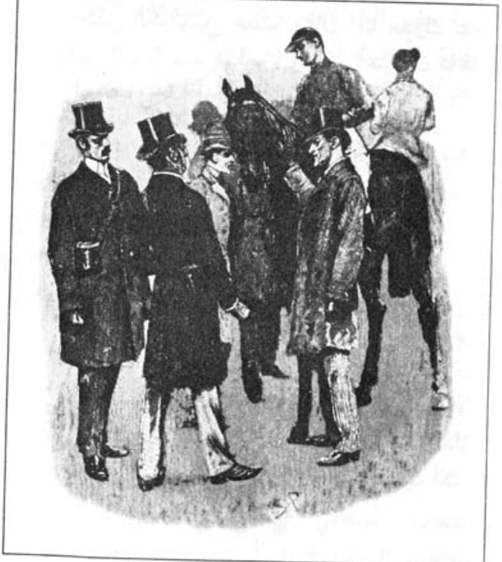
- كم تدهشني يا سيد هولمز!

- لقد أعطيت لنفسي الحرية لإشراكه في السباق كما جاء.

- سيدي العزيز، لقد قمت بمعجزة! الحصان

يبدو بحالة جيّدة ولياقته عالية، إنه في أحسن حالاته، وأنا أدين لك بألف اعتذار لشكّي بقدراتك. لقد أدّيت لي خدمة عظيمة باستعادتك حصاني، وسوف تكون الخدمة أعظم إذا استطعت وضع يديك على قاتل جون ستراكر.

قال هولمز بهدوء: لقد فعلت ذلك.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ — Sydney Paget 1892

حملقنا كلانا إليه بدهشة، وسألته أنا: وجدته؟! أين هو إذن؟!

- إنه هنا.

- هنا؟ أين؟

- إنه بصحبتي في الوقت الحاضر.

احتقن الكولونيل غضباً وقال: أنا مدرك تماماً أنني مَدين لك يا سيد هولمز، ولكني أعتبر أن ما قلته للتوّ مزاح ثقيل جداً أو أنه إهانة لا تُغتفَر.

ضحك شيرلوك هولمز وقال: أؤكّد لك يا سيدي الكولونيل أنني لم أربط بينك وبين الجريمة، فالقاتل الحقيقي يقف خلفك في هذه اللحظة.

صحت أنا والكولونيل معاً: الحصان؟!

- نعم، الحصان، وقد يخفّف من ذنبه أن أقول لكم إنه كان دفاعاً عن النفس وإن جون ستراكر كان رجلاً غير جدير بثقتك، ولكنني أسمع الجرس الآن وأتوقع أن أكسب القليل من السباق القادم، ولذلك سأقوم بتأجيل الشرح المطوَّل إلى وقت مناسب أكثر.

* * *

انفردنا بزاوية في إحدى عربات القطار الخاصّة

في ذلك المساء فيما كنا عائدَين إلى لندن، وأظنّ أن الرحلة بدَت قصيرة لي وللكولونيل فيما كنا نستمع إلى سرد رفيقنا للأحداث التي جرَت في حظائر دارتمور ليلة الإثنين وعن كيفية كشفه لها.

قال: أعترف بأن النظريات التي كوّنتها من تقارير الصحف كانت خاطئة كلّياً، وبالرغم من ذلك فقد كان فيها بعض الدلالات لولا أن تفصيلات أخرى طغت عليها وأخفت أهميتها، ولذلك فعندما ذهبت إلى ديفونشاير كنت مقتنعاً بأن فتزروي سمبسون هو المتهَم الحقيقي بالرغم من أني رأيت أن الدليل ضدّه كان غيرَ مكتمل بأي حال. كان ذلك حين كنت في العربة في الوقت الذي كنا قد وصلنا فيه إلى منزل السائس، حيث خطرت لي أهمية لحم الضأن بالكاري، ولعلكم تتذكرون أنني كنت شارد الذهن وبقيت في العربة بعد أن نزلتم كلكم، فقد كنت أتعجّب في عقلي كيف أنني أغفلت هذا الدليل الواضح.

قال الكولونيل: أعترف بأني حتى الآن لا أستطيع معرفة كيف سيساعدنا هذا.

قال هولمز: تلك كانت الحلقةَ الأولى في سلسلة التحليل المنطقي؛ فالأفيون المطحون ليس عديم الطعم، إن طعمه مقبول ولكنه ملحوظ، فمَن يأكله سيكتشفه وقد يتوقف عن الأكل، ولذلك كان الكاري

هو الوسيلة الوحيدة التي ستخفي طعمه، ولا يوجَد أي افتراض معقول يمكن هذا الغريب من أن يقدّم الكاري في بيت السائس في تلك الليلة، وسوف تكون مصادفة عظيمة أن نفترض أنه جاء ومعه الأفيون المطحون وتصادف في تلك الليلة بالذات أن قُدّم الصنف الذي سيُخفي طعمه. هذا غير منطقي، ولهذا يصبح سمبسون مستبعَداً من القضية ويرتكز اهتمامنا على ستراكر وزوجته، وهما الشخصان الوحيدان اللذان كان بإمكانهما اختيار لحم الضأن بالكاري للعشاء في تلك الليلة، وقد أُضيفَ الأفيون بعد أن تمّ وضع الطعام لصبي الحظيرة، إذ تناول الآخرون الطعام نفسه ولم يحدث لهم أي تأثير سيّئ، وكان في مقدور أي منهم الوصول إلى الطبق دون أن تراه الخادمة.

وقبل أن أحسم إجابة هذا السؤال كنت قد أدركت أهمية صمت الكلب، حيث إن استدلالاً واحداً حقيقياً يوحي بغيره، فحادثة سمبسون أظهرت لي أن في الحظائر كلباً، وبالرغم من ذلك فقد دخل شخصٌ ما وأخذ الحصانَ دون أن ينبح الكلب ليوقظ الصبيان في الليل؛ لقد كان شخصاً يعرفه الكلب جيّداً.

كنت قد اقتنعت فعلاً (أو على وشك الاقتناع) بأن جون ستراكر قد ذهب إلى الحظيرة في جوف الليل

وأخرج سلفر بليز لسبب ما، بالطبع لسبب غير شريف وإلاّ فلماذا خدّر صبي الحظيرة؟ ورغم ذلك كنت في حيرة لأعرف السبب، وقد عرفت بعض حالات قبل الآن حصل السائسُ فيها على مبالغ كبيرة عن طريق وضع رهانات ضدّ حصانه من خلال الوكلاء، وبعد ذلك يحتال لمنع حصانه من الفوز، وذلك بسحب الفارس في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى بوسائل أكثر غموضاً. فماذا كان الأمر هنا؟ تمنّيت أن تساعدني محتويات جيبه في تكوين نتيجة نهائية، وهذا ما حدث، فلا يمكن أن تنسوا السكّين الرائع الذي وجدناه في يد القتيل، وهو سكّين لن يختاره رجل عاقل كسلاح، بل هو -كما أخبرَنا الدكتور واطسون- نوع من السكاكين التي تُستخدَم في العمليات الدقيقة في الجراحة، وكان سيستخدمه في عملية دقيقة تلك الليلة.

لا بدّ أنك تعرف -لخبرتك في أمور السباق يا كولونيل روس- أن جرحاً بسيطاً يمكن إحداثه فوق أوتار العضل في باطن ركبة الحصان، ويتمّ ذلك تحت الجلد حتى لا يترك أي أثر، والحصان المعالَج بهذه الطريقة سوف يظهر عنده عرَج خفيف قد يعتبرونه بسبب إجهاد في التمرين أو قليل من الروماتزم، ولكن أحداً لن يعتبره مكيدة مدبَّرة.

صاح الكولونيل: وغد... خبيث!

قال هولمز: لدينا أيضاً تفسير لسبب رغبة ستراكر في أخذ الحصان إلى الخارج في المستنقع، فمخلوق نشيط بهذه الدرجة سوف يوقظ بالتأكيد النائمين مهما كان نومهم عميقاً عندما يحسّ بطرف السكين، ولذلك كان من الضروري إجراء العملية في الهواء الطلق.

صاح الكولونيل: لقد كنتُ أعمى! وبالطبع كان هذا هو سبب حاجته إلى الشمع وعيدان الثقاب.

- بلا شكّ، وقد حالفني الحظ حين فحصت أغراضه، فلم أكتشف فقط طريقة الجريمة بل ودوافعها أيضاً؛ فرجل بخبرتك -يا كولونيل- يعرف أن أياً من الناس لا يحمل فواتير غيره في جيبه، فأغلبنا عنده ما يكفيه من فواتيره الخاصّة، ولذلك فقد استنتجت على الفور أن ستراكر يعيش حياة مزدوجة وأن له علاقة أخرى، فطبيعة الفاتورة أظهرت وجود سيّدة في القضية، سيدة ذات ذوق مكلّف، ومهما كنتَ كريماً مع موظّفيك فلا يمكن أن نتوقع أن يشتري أحدهم ثوباً عاديّاً لزوجته بعشرين جنيهاً! وقد سألت السيدة ستراكر عن الثوب فلم تعرفه، وبعد أن تأكدت من أنه لم يصل إليها أرسلت مذكّرة إلى محل الملابس، وشعرت أن ذهابي إلى المحل مع صورة ستراكر سيمكّنني من التخلّص بسهولة من شخصية

ديربشاير الخيالية. ومنذ ذلك الوقت صار كل شيء بسيطاً؛ لقد قاد ستراكر الحصان إلى الحفرة حيث لن يرى أحدٌ الضوء، وكان سمبسون قد أوقع رباط عنقه في أثناء هربه فالتقطه ستراكر، ربما لأنه أراد استخدامه في ربط ساق الحصان، وحين وصل إلى المنحدر ذهب خلف الحصان وأشعل ضوءاً، ولكن الحصان فزع من الوهج المفاجئ، ولعله استشعر بغريزة الحيوان الغريبة أن الرجل ينوي إيذاءه فهاجمه، وقد ضربت حدوة الحصان الحديدية جبهته بكل قوة، وكان قد خلع معطفه رغم المطر حتى يستطيع تأدية مهمّته الدقيقة فجُرح فخذه في أثناء سقوطه.

صاح الكولونيل: رائع، رائع! كأنك كنت هناك!

- وكان تخميني الأخير (وأنا أعترف أنه كان بعيداً جداً) حين خطر ببالي أن شخصاً ذكياً كستراكر لن ينفّذ عملية دقيقة كشقّ الأوتار دون تدريب مسبق، فما الذي يمكن أن يتدرب به؟ عندها رأيت الخراف وسألت سؤالاً أثبت -لدهشتي- أن تخميني كان صحيحاً! وحين عدت إلى لندن اتصلت بمحلّ ملابس السيدات الذي تعرّف على ستراكر كعميل ممتاز باسم ديربشاير وذي زوجة جميلة جداً تميل إلى الأثواب الغالية، ولا شك عندي أنها قد أغرقته حتى أذنيه في الديون وقادته إلى هذه المكيدة البائسة.

صاح الكولونيل: لقد وضّحتَ كل شيء ما عدا شيئاً واحداً؛ أين كان الحصان؟

- لقد جفل وتمّ الاعتناء به من قِبل أحد جيرانك، ويجب أن نتحلى بالرحمة في هذا الموضوع.

ثم أشار إلى الطريق وقال: لقد وصلنا إلى تقاطع كلافام إذا لم أكن مخطئاً، وسوف نصل إلى محطة فكتوريا خلال أقل من عشر دقائق، فإذا أردت أن تشاركنا شرب كوب من الشاي في مسكننا فسأكون سعيداً بإعطائك أية تفصيلات أخرى تهمّك.

* * *

-تمّت-



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ — Sydney Paget 1892